المركز والهامش
مفهومه، أنواعه، جذوره.

الطالبة: الباح دليلة

تحت إشراف: أ.د/ تبرماسين عبد الرحمان

ملخص:

هذه الدراسة تسعى لأن تكون بوابة لموضوع شائك كثير التداخل بين السياسي والاجتماعي والاقتصادي، والتقني وحتى الصحي أيضا، إنه موضوع "المركز والهامش في الأدب" ولأجل ذلك قمنا بتقصي أثر هذا الموضوع لغةً واصطلاحًا وفكرًا.

1- مفهوم المركز والهامش:

يعد مصطلح المركز والهامش من أكثر المصطلحات غموضا وإثارة للجدل، إذْ يدخل في عدة مجالات منها: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والثقافية حيث يكثر تداوله.

ولعل قيمته تكمن في قدرته على جمع هذه المجالات وتكييف عناصرها، فكلما تطرقنا إلى مجال ما من هذه المجالات إلا وتداخلت معه المجالات الأخرى بشكل أو بآخر فيصعب الفصل بينهما أحيانا.

وللتعرف على مفهوم المركز والهامش، سوف أحاول التوقف عند بعض المحطات التي يمكن أن تنير طريق البحث ولنتقصى من خلالها المركز والهامش.

1-1 مفهوم المركز:

1-1-1 التعريف اللغوي:

جاء في لسان العرب مادة « ..."ر- ك- ز"، ركز المركز، غرزك شيئا منتصبا كالرمح ونحوه و تركيزه ركزا في مركزه.وقد ركزه، يركزه ويركزه ركزا و ركزه غرزه في الأرض [...] ومركز الرجل موضعه [...] و مركز الدائرة وسطها". » [1]

وورد في قاموس المحيط: « ركز الرمح يركزه. و يركزه: غرزه في الأرض[...] والمركز: وسط الدائرة. وموضع الرجل ومحله حيث أمر الجند أن يلزموه والمركز الرجل العالم العاقل السخي الكريم [...] والركيزة دفين أهل الجاهلية وقطع الفضة والذهب من المعادن. » [2]

من خلال ما سبق يتجلى لنا أن المركز هو الثابت المستقر في الأرض وهو النقطة التي منها ينتشر محيط الدائرة، وتدل على ما هو ثمين مادي كالفضة والذهب، ومعنوي كالقلم والعقل والكرم.

1-1-2 المركز اصطلاحا:

1-اجتماعيـــا:

وهو تعبير يستخدمه علماء الاجتماع «...بمفهوم اجتماعي وجغرافي للدلالة على العلاقات القائمة بين قلب القوة والثقافة لمجتمع ما ومناطقه المحيطة. » [3]

ويتجلى المفهوم الاجتماعي القديم في التقسيم الطبقي لفئات المجتمع. فتختلف طبقة الأسياد عن العبيد، وطبقة الأغنياء عن الفقراء، وتنتج عادات خاصة باللباس والأكل والشرب و الجلوس والسمر والسكن ..

لا يمكن للطبقة الأدنى أن تمارس عادات الأسياد، لتميزها الطبقي ولاختلافها الاجتماعي والاقتصادي؛ لكنها تتقاطع معها في بعض الحالات وخاصة في المجتمعات الإسلامية حيث تتقارب العادات والتقاليد بحكم الدين، فتصبح هذه العادات حكرا على طبقة الأسياد. وتقوم طبقة الهامش بخلق عادات تلائم طريقة عيشها وأوضاعها الاقتصادية.

2-اقتصاديـــا:

استخدمه "راؤول بريبش Raoul Prebisch"❖ كمفهوم في الاقتصاد يعني به أي "المركز" التقدم التقني والفني وإنتاج الخيرات التي تسَوق وتصدر حيث أكد « ...أن الاقتصاد العالمي الحر ينقسم إلى دول المركز،الدول الصناعية البالغة التقدم في أوروبا الغربية المتحدة واليابان [...] وتقوم هذه الأخيرة بتصدير سلع مصنعة ويعتبر التقدم التقني الذي يسمح بتزايد معدلات الإنتاجية. » [5]

هذا التقسيم الاقتصادي هو تقسيم إداري قديم فرضته دول الاستعمار في القرن التاسع عشر. وتعد دول المركز. حيث تصدر دول المحيط مواد غذائية زراعية ومواد الخام، مقابل سلع مصنعة تصدرها دول المركز وتنتجها بطرق علمية متقدمة. واستمر هذا التبادل إلى يومنا هذا في حين

تشهد دول المركز تقدم تقني سريع، مازالت دول الهامش تعتمد على البترول ومختلف مواد الخام.

3-سياسيـــا:

ونقصد بـــ: "المركز السياسي" : هو مكان وجود السلطة وكل الإدارات التابعة لها حيث تكون « ...الدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف والنطاق وإذا انتهت إلى النطاق الذي هو الغاية عجزت واقتصرت عما وراءها. شأن الأشعة والأنوار إذا انبعثت من المراكز والدوائر المنعكسة على سطح الماء من النقر عليه »[6]

وتسقط الدولة «...إذا غُلب مركزها فلا ينفعها بقاء الأطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها. فإن المركز كالقلب الذي تنبعث منه الروح، فإذا غُلب القلب و مُلك انهزم جميع الأطراف. » [7]

يرى ابن خلدون أن المركز هو القلب النابض للدولة، وإذا غلب المركز لم ينفع الملك بقاء الأطراف، أما إذا لحق الضرر بالأطراف فالملك سوف يستمر إلى أن يأذن الله بزواله.

العلاقة بين المركز والأطراف في الدولة الواحدة علاقة تكامل، لذا فإن تصدع المركز و سقط فإن سقوطه يؤدي إلى انهيار الأطراف .ومثال ذلك مدائن مركز الدولة الفارسية فما إن استولى عليها المسلمون حتى سقطت دولة الفرس بأكملها، ولأن الأطراف هامش فانهيارها لا يضر المركز، لذا سقوط الشام لم يضر الدولة الرومانية المترامية الأطراف.

وفي القديم لا يمكن الاستفادة من الدول إلا بالاستعمار المباشر لها، فكانت العلاقات بينها مبنية علي الصراع الحربي والتنافس السياسي، أما اليوم فإن « .. المراكز الرأسمالية المهيمنة لا تسعى بالضرورة إلى

فرض سلطتها السياسية[...]لأن لها القدرة الفعلية على ممارسة هيمنتها بواسطة الوسائل الاقتصادية أما الدول في الحقب السابقة فإنها لم تكن واثقة من الحصول على منافع التبعية الاقتصادية التي تفرضها على "الأطراف" التي تريدها،مادامت هذه "الأطراف" خارجة من مجال نفوذها السياسي. » [8]

يميز الهادي التيمومي بين المفهوم القديم والحديث. وإذا كان هدف الاستعمار فرض التبعية الاقتصادية واستنزاف خيرات الشعوب، فهذا الهدف سهل المنال مع النظم الجديدة لاقتصاد السوق ،فيتم وفق آليات محكمة دون خسارة جندي أو طلق رصاصة. أما النظم القديمة فقد تعتمد على قوة السلاح والعسكر وهذا ما يعكسه تاريخ الغرب الاستعماري بعد نجاح الثورة الصناعية إذ قام بغزو بلدان أمريكا وآسيا وإفريقيا بالخصوص بحثا عن الأسواق وجلبا لليد العاملة والمعادن الخامة.

4-أدبيـــا:

ونحن نتحدث عن الأدب نذكر أن هذا الأخير محكوما بعدة جوانب: دينية، سياسية، اجتماعية، ثقافية، فنية، جمالية، تاريخية، ...وبناء على ذلك تُهمش آداب وتبرز بعضها للوجود، فتأخذ موقع الصدارة.

وأهم السبل التي ينتهجها الكاتب والدولة على حد السواء لأخذ موقع مركز رعاية الآداب «...وهي إعالة الكاتب عن طريق شخص ما أو مؤسسة يحميانه، ولكنهما ينتظران منه بالمقابل إشباع رغبتهما الثقافية والعلاقة بين التابع والسيد. » [9]. وعلى مر الأجيال تجسدت رعاية الدولة للآداب في إعطاء نفقات منتظمة أو تخصيص «...وظائف رسمية في إنجلترا أو "المؤرخ الرسمي عند الملك "في فرنسا ويمكن أن نعتبر الوظائف الديوانية الشكلية التي عاش بفضلها العديد من الكتاب الفرنسيين

في القرن 19 شكلا من أشكال رعاية الدولة للآداب» [10] وقد كان مثل هذا في الدولة الأموية والعباسية.

وبناء على هذه الرعاية فإن هذا الأدب سوف يتداول بين الناس ويدرج في المناهج التربوية.ليس هذا فحسب بل إنه سوف ينال شهرة واسعة بفضل التوزيع والإشهار.

وهذه العناية للكاتب والآداب أكسبت الدول «...ملامح ما أسمته بالجمهورية العالمية للآداب التي تضم مختلف الثروات الأدبية للشعوب، وعاصمة هذه الجمهورية أو السيدة الأولى على هذا المجال الأدبي العالمي هي باريس وينافسها على السيادة كل من برلين ولندن، صاحبتي الآداب الكبرى. » [11]

وهذه الجمهورية «...تقوم على مركزية أوروبية ولها عاصمة هي باريس. من عندها تحدد مواقع الضواحي والنجوع الأدبية التي تختلف لغاتها عن المركز وتبتعد عنه على المستوى الجغرافي. » [12] وهذه المركزية سواء كانت في روما ومدريد أو في باريس أوفي مسعى الولايات المتحدة الأمريكية بفرض العولمة وسياسة التجارة للإشهار.فإنه لم يخرج من نطاق حدود الدول الاستعمارية.

ومصطلح عالمية الأدب ينطلق أساسا من تجاوز الأدباء حدود ثقافتهم القومية و يعترف بهم من قبل هذه المراكز وهذا الاعتراف هو اعتراف عالمي يسمح لهم بتوسيع نطاق أدبهم.

1-2الهامش:

1-2-1التعريف اللغوي:

جاء في لسان لابن منظور «...همش:الهمشة.الكلام والحركة، هَمَشَ، وهَمِشَ القوم فهم يهَمَشون ويهمِشون وتهامشوا والمرأة همش الحديث بالتحريك تكثر الكلام وتجلب. ويقول ابن الأعرابي:

الهَمَشُ والهمْش كثرة الكلام في غير صواب وأنشد:

وهَمِشوا بكلام غير حسن.» [13]

فالهامش هو الكلام غير المجدي ومثال ذلك المرأة الثرثارة تكثر الكلام والحركة فتحدث بهما الجلبة. فالكلام والحركة عندما أضيف إلى الهامش دل على صفة سلبية.

أمّا قاموس المحيط لا يكتفي بهذا المعنى فيضيف له « ...الهامش حاشية الكتاب (مُولَدُ)» [14] ويعني به الكلام الخارج عن المتن في الصفحة فنجده علي حافة الكتاب وهذا التعريف للهامش هو إضافة جديدة أخذها العرب عن الفرس.

1-2-2-الهامش اصطلاحا:

1-اجتماعيا:

المنطقة الهامشية وهي «...إقليم يقع على هامش منطقة ثقافية معينة ,تلتقي فيه ثقافتان أ وأكثر، وتحل فيه السمات الثقافية للثقافات المجاورة»[15]

فتهميش الجماعة يأتي من انبهارها بسمات ومميزات المركز. فتتخلى عن عاداتها وتقاليدها، لعلها تحصل علي مكان مرموق في مساحة المركز. لكن للأسف ما إن تتخلى الجماعة عن مميزاتها حتى تجد نفسها أصبحت ظلا لهذا التوهج الساطع.فلا يمكنها العودة إلى ما كانت عليه،

كما أنها لم تتمكن من الوصول إلى مصدر هذا الضوء الساطع مهما اختلفت وتعددت سبلها.

2-اقتصاديا:

ويقصد بدول الهامش، الدول السائرة في طريق النمو من قارة آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية.فتعتمد هذه الدول على تصدير مواد الخام والمواد الأولية.واستخدام مفهوم الهامشية لأول مرة كان «...لوصف الإخفاقات الاجتماعية المروعة والتي لحقت بالمعجزة الاقتصادية البرازيلية .لان انجاز المعدلات المرغوبة في النمو الاقتصادي والتصنيع ،قد أفضى إلى حدوث خسارة كاملة في العاملة الصناعية.» [16]

فبفضل التطور التقني والصناعي حلت الآلة مكان العامل وتعرض للتسريح من مكان عمله. وبالتالي توقفت أجرته وأصبح يعيش الفاقة والعوز. واستخدمت أيضا التهميشية لعزل الدول وإبعادها عن التدابير الاقتصادية العالمية و أطلق عليها بالعالم الرابع لان هذا العالم "لا يملك المواد ولا الأسواق المحلية التي في مقدورها جذب المستثمرين الأجانب فإنه لم يعد يستطيع المشاركة بشكل مؤثر في التدابير الاقتصادية العالمية ومن ثم يمكن القول أنه أصبح يقف على الهامش" [17] وهذا شأن الدول العربية، بل غالبية دول العالم الثالث.

3-سياسيا:

ينظم الجماعة نظاما سياسيا معينا، ومساهمة الأفراد ضرورية لنجاح الجهد الجماعي لكن قد تتعارض رغبات الأفراد مع رغبات الجماعة ،ويحدث بينهما التنافس والتنازع فيهمش بعض الأفراد عن الجماعة وهذا

ما حدث للصعاليك في عرف النظام القبلي. والسؤال الذي يجب طرحه هو: متى، وكيف يهمش المركز السياسي؟

إذا كان الفرد الذي يمثل المركز «...لم يكن مخلصا لمركزه .فسوف يُنتقد من قبل الآخرين ويكون انتماؤه للجماعة موضع تساؤل، وقد يُعزل ولكن الرادع الوحيد يبقى في عزله معنويا، وفي التهديد بقطع الصلة التي تشده للجماعة.» [18]

كما أن السلطة «...هي التي تقوم على سن القوانين وحفظها وتطبيقها ومعاقبة من يخالفها. وهي التي تعمل على تغييرها وتطويرها كلما دعت الحاجة» [19] ومن جهة أخرى يؤثر الرأي العام على السلطة السياسية في سلطة مجسدة ،فينبغي على الرئيس أن يراعي في أحكامه موقف أنصاره وعماله ومواطنيه وعلى«..الأمير قبل كل شيء، أن يحترز من أن يبغض أو يحقر، وعليه أن يتحاشى كل ما من شأنه أن يجعله بغيضا ومحتقرا.»[20]

لأن البغض والاحتقار سينتج عنهما الانقلاب والعصيان والحركات الثورية، التي تختلف هي نفسها من حيث الشكل والأسلوب اختلافا كبيرا. أحزاب سياسية، مؤامرات وجمعيات سرية.

ولتفتيت المركز السياسي هناك طريقة تقليدية، وهي الإستعمار المباشر بما يحمله من حرب ودمار. ونفي الحكام أو موتهم في ساحات المعارك .وبطريقة حديثة تتمثل فيما يسمى بالإستعمار غير المباشر أو ما يطلق عليه بـــ«...عقلنة الصراع الثوري، فتعتمد على الانقلاب لتغير النظام القائم وذلك باستخدام مخططات صرفوا في تمحيصها ودراستها وقتا طويلا. وهذه المخططات تستعمل أساليبا متتالية وأسلوب إقامة جبهة شعبية وهي الخطوة الأولى. ولا يلجؤون إلى حرب الشوارع إلا في نهاية عملية معقدة لتفكيك القوى المضادة و تسميمها فتقوم وحدة الأقسام الرئيسية في هذه العملية إدخال نواة معارضة إلى قلب الإدارات والجيش

والبوليس للاستيلاء عليها أو تفكيكها. » [21] وميزه هذه الطريقة هي أنها تقوم بالثورة دون إطلاق رصاصة واحدة وفقا لمظاهرات شكلية و شرعية وتستخدم الهامش لإشعال فتيل الثورة.

4-أدبيـــا:

ويطلق عليه "بالأدب الدوني" ويسمى "بالأدب السوقي" وأحيانا "بالآداب الهامشية" وهو قطاع تجاهلته الكتب والبرامج الإشهارية والمناهج التربوية.

ظهر في « ...القرن 19 حيث حلل شارل نيزار Charles nizar مضمونها في كتابه "تاريخ الكتب الشعبية" أو أدب نقل الأخبار.»[22] وعندما نقول "نقل الأخبار" نعني به ما تتوفر عليه المحفوظات الخارجية الفرنسية من رصيد أدب الشعوب خاصة الجزائر الذي «...يحمل عنوان "مذكرات ووثائق"جمعت فيه وثائق متفرقة موزعة على طول الفترة ما بين منتصف القرن 19 حتى عام 1844 » [23] وينظر إليه على أنه أدب محلي «...ويتعامل معه على أنه في مرتبة أدنى مما هو عالمي.» [24]

ولتهميش الكتاب هناك عدّة طرق: منها القانونية ومنها الخفية «...فالدولة الفرنسية تصادر- بموجب - قانون جايسو الصادر في 13يوليو عام 1990 .كل كتب التي يجرئ أصحابها على المراجعة التاريخية للهولوكوست (غرف الغاز) في معسكرات الاعتقال النازية لليهود ممكنة بذلك للوبي الصهيوني في فرنسا ومختلف جوانب الرعب لدى الأدباء والمفكرين الذين يتعرضون لليهود أو الصهاينة من قريب أومن بعيد كذلك تدخلت الدولة الفرنسية - بشكل خفي- في أثناء حرب التحرير الجزائرية لتمنع نشر المصنفات المتعاطفة مع الجزائريين والتي

تساند كفاحهم المشروع ضد الاستعمار» [25] ولو كانت هذه المصنفات أو المقالات من كتاب فرنسيين.

وتأتي المراقبة والمصادرة الخفية التي يقوم بها أمناء المكتبات في فرنسا حيث يصادر هؤلاء الأمناء الكتب غير الملائمة لتوجهاتهم السياسية. فنرى أن التهميش لا يتوقف على وصول الآداب إلى حدود المركز فيتم التهميش في المركز ذاته بعدة طرق كما سبقت الإشارة بقوة القانون وبقوة السلطان الحاكم.

2- إطلالة على المركز والهامش في الأدب العربي

2-1 - مركزية الشعر و هامشية النثر:

جاء في العمدة «...كل منظوم أحسن من كل منثور من حسنة في معترف العادة، آلا ترى أن الدر -وهو أخو اللفظ ونسيبه، وإليه يقاس، وبه يُشَبَّه- إذا كان منثورا لم يؤمن عليه ولم ينتفع به [...]فإذا نظم كان أصون له من الابتذال، وأظهر لحسنه مع كثرة الإستعمال ،وكذلك اللفظ إذا كان منثورا تبدد في الإسماع ،وتدحرج عن الطباع. ولم تستقر منه إلا المفرطة من اللفظ إن كانت أجمله.

والواحدة من الألف وعسى ألاّ تكون أفضله، فإن كانت هي اليتيمة المعروفة والفريدة الموصوفة.فكم من سقط الشعر من أمثالها و نظرائها لا يعبأ به ولا ينظر إليه.فإذا أخذه سلك.الوزن وعقد القافية. تآلفت أشتاته وازدوجت فرائده وبناته. واتخذه اللابس جمالا، والمدخر مالا، فصار قِرَطَةَ الآذان وأماني النفوس وأكاليل الرؤوس يقلب بالألسن ويخبأ بالقلوب، مصونا باللب.» [26]

يبدو جليا من خلال القول "مركزية الشعر"وتفضيله على النثر فهو "أحسن" منه. وشبه اللفظ بالدرر فرغم قيمة الدرر الثمينة فإن تركه منثور، لا يبرز جماله وقيمته المادية، أما إذا انتظم في حلية فإن قيمته

تبرز للأعيان ويكثر الطلب عليه واستعماله والألفاظ في بطون المعاجم منتشرة تحمل"دلالة مركزية " وهي القيمة الثمينة للكلمة حسب التشبيه لكن إذا تألقت فيما بينها وانتظمت في عمل فيخرج معناها من الدلالة الأم إلى دلالات متعددة ويصبح الطلب على الكلمة من خلال هذه الدلالات والمعاني، وقد شبهها إبراهيم أنيس "بالظلال" التي تختلف «...باختلاف الأفراد وتجاربهم وأمزجتهم وتركيب أجسامهم وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم. [27] ومن خلال هذه الدلالات المتنوعة التي تشد إليها المتلقي فإن الكاتب / المنتج يجد فيها ثراء لغويا يكسب نصه / قصيدته معان متعددة، أمّا الكلمات التي بقيت حكرا على بطون المعاجم وهجرها الاستعمال نظرا لعزوف الكتاب عنها أو جهلهم لها، تصبح غريبة على المتلقي لقلة استعمالها وإن كانت فصيحة.

وموضع استعمال الكلمة يختلف من النثر إلى الشعر ففي النثر قد تسقط الكلمة الجميلة من أذن المتلقي في حين أن موسيقى الشعر تسهل التقاطه فيستقر في القلب دون أن تذهب كلماته أو تفلت حلقاتها.

فالشعر«...هو الكلام الموزون المقفى، و النثر هو الكلام المطلق الذي لا يتقيد بذلك، وهذا فرق لفظي أما الفرق المعنوي هو أن الشعر أكثر ما يعتمد على عاطفة الشاعر وشعوره وخياله. وأما النثر فأكثر ما يعتمد على العقل و المنطق و المعاني، ومن هنا كان الشاعر يغذي المشاعر والخيال أكثر مما يغذي العقل والنثر عكس ذلك.» [28] فالنثر إرتبط بالكتابة والعقل، والشعر إرتبط بالشفوية والعاطفة.

ومركزية الشعر القديم مستمدة من الثقافة الشفوية فيذكر ابن رشيق «...ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون

عشره.»[29] فالحفظ والتلقي هو الذي نقل الشعر من جيل إلى آخر قبيل الإسلام و بعده حتى تأسست الكتابة العربية ودونت الأشعار نقلا عن الرواة الشفويين وانتقل « ...الشعر من مرحلة الجن الشفوية إلى مرحلة النصوص الكتابية بوصفه تاريخا للتفاعل بين الشفوية والكتابية.» [30]

وتهميش الكتابة ضاربا في القدم فقد كانت «... محتقرة عند العرب والإغريق على حد السواء مقارنة بالكلام الذي أخذ أهميته من علاقته بالنفس والروح [...] وأهمية الكلام في مركزيته المعقولة والمقدسة » [31]

ويذكر "عبد الحميد جيدة "في كتابه "أثر الكتابة في الأدب" إلى أن الشعر العربي يخاطب الحروف كما يخاطب البشر والأحياء و يرجع هذا إلى الفكرة الدينية أن كل شيء كان مكتوبا في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الله سبحانه وتعالى عالم الشهادة ولذا إن علم الحروف (الكتابة) عالم قديم وهو الأصل.[32]

وتجمع المصادر العربية القديمة «..علي أن الخط الذي كتبت به العرب توقيف من الله عز وجل، علمه آدم عليه الصلاة والسلام قبل موته بثلاثمائة سنة .كتبه علي الطين ثم طبخه .فلما أصاب الأرض من الغرق. وجد كل قوم كتابهم فكتبوا به .فكان إسماعيل عليه الصلاة والسلام قد وجد كتاب العرب[..] وهو أول من تكلم العربية.»[33] أي أن إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام هو أول من تكلم بها فوضعت على لفظه ومنطقه.

ومما سبق فإن الكتابة هي الأصيل وتهميشها وعدم انتشارها يعود إلى نتيجة صعوبة استخدام أدواتها فكانت «... الأقلام في التاريخ تتخذ عند السومريين القدماء من آهل العراق من الحديد أو العظام أو الخشب [...] أما في مصر فكتبوا علي الأحجار بأقلام الحديد، ونقشوا أدق الصور. التي كانت هي المعبرة عن المقصود ثم كتبوا علي البردي بقلم القصب

المعروف، واتخذ العرب أقلامهم في صدر الإسلام الأول من لب جريد النخل ثم من القصب.» [34]

وتهميش النثر يعود بالأساس إلى تهميش الكتابة وانتشار الأمية والاعتماد على العقل أثناء الكتابة، لكن ما إن ظهر الإسلام حتى حث الإنسان على القراءة والكتابة .

فيقول عز وجل:

{ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** (1) **خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ** (2) **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ** (3) **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** (4) **عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** (5)}[35] هذه الآيات تحمل بين ثناياها مبادئ النبوة وأسسها فالقراءة، هي بحث متواصل للإنسان في خفايا هذا الكون وكل اكتشاف جديد يصل به الإنسان إلى حقيقة ثابتة وهي وحدانية الخالق.

ومن الأمر بالقراءة انطلق العلماء في الكتابة والتدوين. وازدهرت الترجمة من مختلف الآداب الأجنبية إلى العربية. كما تطور الشعر والنثر بدورهما فظهرت عناصر شعرية في النثر أو عناصر نثرية في الشعر، ويدخل هذا في إطار التأثير والتأثر بين الأجناس الأدبية فنجد في النثر لغة شعرية ففي كتابات مصطفى صادق الرافعي وجبران خليل جبران النثرية نجد لغة شعرية جميلة، وكسر الشعر قيود الوزن والقافية وظهرت قصيدة الشعر الحر وتلتها قصيدة النثر.

وخلاصة القول: الشعرية الشفوية ترتكز على الوزن لأنها تهدف إلى التأثير في السامع. أما الشعرية الكتابية فترتكز على الرؤيا البصرية التي تتجلى من خلال صورة القصيدة وإيقاعها معا، وقد نتطلع إلى شعرية سمعية بصرية تعتمد على وسائل الإعلام الحديث.التلفزيون، الأنترنيت، أو ما يمكن أن نصطلح عليه بالشعرية التفاعلية كما في كتابات محمد

السناجلة الموسومة عند بعض الأدباء بالكتابة الإلكترونية أو بالكتابة التفاعلية، فتؤثر على السمع والبصر معا.

واعتمد الأمير عبد القادر على مركزية الشعرية الشفوية وأستخدم الوزن والقافية لندرة وسائل الطباعة حينئذ و تأثر المتلقي بالسماع. وهي مركزية قديمة تدفع بالكاتب إلى انتهاج البناء القديم للقصيدة.

2-2-مركزية الشعر الفصيح و ها مشية الشعر العامي:

يقول شوقي ضيف «... من الحق أن الشعر العامي الشعبي في الجزائر سواء نظم على لسان البدوي من الأعراب أو على لسان أهل الحضر والمدن. لم ترجح يوما كفته على كفة الشعر الفصيح. والجزائر في ذلك مثل بقية البلاد المغربية والعربية عامة إنما كانت تعني الطبقات المثقفة فيها عناية أكبر وأوسع بالشعر الفصيح.» [36]

من خلال القول يتجلى لنا أن الشعر الفصيح هو المركز والشعر العامي هو الهامش ليس في الجزائر فحسب بل في كامل الأقطار العربية وهو نتيجة حتمية لاستعمال اللّغة. فاللغة العربية « تستعمل مستويين: أعلى هو (الفصيح) وأدنى أهو (اللهجات) المحكية العامية» [37] وإن كانت هذه الأخيرة هي السائدة في الاستعمال اليومي وفي التداول وفي كل القضايا التي تستلزم التواصل

فالفصحى هي اللغة المقدسة لدى العرب لغة " القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف " فتنبه «إلي خصوصياتها فصحاء القوم، منذ شغلهم بيانها وسحرها. ثم شغل بها البلاغيون فاستوقفتهم أسرار بلاغتها وتميزها[...] وأوجز فيها العرب خلاصة تجاربهم وسجلوا بواسطتها خلاصة معارفهم وتاريخهم، ثم كانت لغة الشعر ،الذي رآها العرب ديوانا لهم.»[38]

أما العامية « فتتداولها الطبقات الدنيا .وقد يشاركها أفراد من الطبقات الوسطى [...] وساعد على انتشارها تحول مقاليد الحكم العباسي من أيدي الفرس أصحاب الحضارة العريقة إلي أيدي الترك، وكانوا لا يعرفون أي

حضارة ولم يكن يعنيهم أن يحسنوا العربية. فاستخدموا اللغة الدارجة في أحاديثهم. وكان ذلك عاملا مساعدا علي إشاعتها»[39] في الجزائر خصوصا نظرا لعدم تشجيع الأتراك لكل ما يخدم اللغة العربية والثقافة العربية وهي تهتم بالجانب العسكري على حساب تأسيس المدارس والثانويات وتطوير التعليم ولم يحدث في عهدهم أن تطورت الزوايا إلى جامعات في عهد الأتراك بالجزائر ليتحسن مستوى التعليم و تتطور اللغة.

وإذا تفشى اللحن فقد سخر الله رجالا لخدمة اللغة وفي ذلك يقول ابن منظور في مقدمته للسان العرب « ... إنني لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة النبوية وضبط فضلها، إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبوية. ولأن العالم بغوا مضه يعلم ما توافق فيه النية اللسان ويخالف فيه اللسان النية. وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الأوان، من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام بعد لحنا مردودا. وصار النطق بالعربية من المعايب معدودا وتنافس الناس تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية وتفاصحوا في غير اللغة العربية فجمعت في هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفخرون، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه ومنه يسخرون.» [40]

وإذا كان عمل ابن منظور جمع اللغة في معجم لسان العرب فإن عبد القاهر الجرجاني يميز بين الألفاظ ويرى أن اللفظ العامي « ...سخيفا وسخفه بإزالته عن موضع اللغة، وإخراجه عما فرضته من الحكم والصفة.» [41] وهذا الحكم بعينة التهميش وإزالة العامي من دائرة المركز وإبعاده من الساحة الأدبية.

وهذا ما جعل ابن سنان الخفاجي يميز هو الآخر بينهما في طريقة التأليف فيقول «يقبح في التأليف كثرة الكلام الوحشي أو العامي.» [42]

واللفظة «لم تبتذلها العامة بانفرادها، وإنما تستعملها مضافة إلي غيرها فيكون التأليف على هذا الفرص عاميا بحكم ما أفادته الإضافة لتلك اللفظة، وإذا اتفق هذا وجب تجنبها مضافة والاحتراز من الصيغة التي تعرض فيها بعض الوجوه المذمومة.» [43] ويعني بهذا أن الكلمة قبل أن تدخل التأليف هي فصيحة لكن ما إن تدخل في تركيب ما حتى تكتسي طابع العامية والوحشية .فيجب تجنبها لأنها مذمومة.

أما بن قتيبة فيتحدث عن الاستعمال فيقول: « ... وليس للمحدث أن يتبع المتقدم في استعمال وحشي الكلام الذي يكثر ككثير من أبنية سيبوية واستعمال اللغة القليلة لدى العرب كإبدالهم الجيم من الياء كقول القائل:

"يا رب إن كنت قبلت حجتج"

يريد "حجتي" وكقولهم:

جمل بختع يريدون بختي وعلج يريدون علي[...]

وكإبدالهم الواو من الألف كقولهم: أفعو حبلو "يريدون أفعى وحبلى" [44]

ورفض العلماء استعمال العامية وهذا لعدة اعتبارات منها:

اعتبارات دينية: العامية لا تساعد على الاتصال بالحرف العربي المطبوع ومن ثم يعجز المتعلمون عن قراءة القرآن الكريم وكتب الحديث النبوي الشريف.

اعتبارات قومية: العامية تفرق بين الشعوب العربية وتقطع روابط الفكر وما كان من شأنه توحيد الاتجاه وتدعيم الصلات بين أبناء الوطن.

اعتبارات تربوية: من يتعلم الفصحى يكون أقدر علي تعليم العامية، وعلى توصيل المعلومة وإفهام المتلقي.

اعتبارات لغوية: العامية أضيق لفظا وفكرا من الفصحى. [45]

كما استطاعت «...العربية الفصحى أن تحوى كل معارف وآثار وعلوم الأمم الأخرى التي دخلت تحت حوزة الأمة الإسلامية فهذا بيتها وطورتها ثم تجاوزتها إلي حد الإبداع، والابتكار المحلي الأصيل ولولا

الفصحى لجنت القرون الوسطى بضلالها علي أوروبا.» [46] ولبقيت في ظلام دامس إلى يومنا

فبعد سقوط الأندلس وفي « عهد الرجاريين• بلغت الثقافة العربية أوجها [...] واكتشف المسلمون من جديد كنوز آدابهم وتشريعهم ومعارفهم العلمية فانتشرت اللغة العربية حتى صارت الوسيلة الرئيسية للتخاطب.» [48]

فالعربية ليست لغة العرب وحدهم بل لغة الكل وهذه الحقيقة التي يجب أن تظهر للوجود «فالأمازيغ فضلوا أن يلقبوا بالبربر على أن لا ينطقوا لغة الرومان – لغة الحضارة – ولكن نطقوا "الفصحى" واستأنسوها وخدموا بها الإسلام طويلا. بل دافعوا عنها أيمّا دفاع حتى أنهم خدموها. وثبتوا جذورها التي استعصى اقتلاعها على أيدي فرنسا وكل الأعداء.» [49]

وبعد هذه الجولة في فضاء الشعر واللغة أظن أنه بإمكاننا أن نقول بأن مركزية الشعر الفصيح تستمد أساسا من مركزية اللغة الفصحى المقدسة.

الهوامش:

[1]- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مجلد6، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص 214.

2- محمد إبراهيم، الفيروز بادي، الشيرازي الشافعي، القاموس المحيط،ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1999، ص283.

3- ميشيل مان، موسوعة العلوم الاجتماعية، ترجمة عادل مختار الهواري، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 1999، ص99.

❖- راؤول بريبش: أول سكرتير عام لمؤتمر التجارة والتنمية التابع للأمم المتحدة وطرح نحو سياسة جديدة للتجارة والتنمية،"1964" هذا التقسيم الاقتصادي لدول العالم.

5- ميشيل مان، موسوعة العلوم الاجتماعية، ص 99.

6- عبد الرحمان ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر "مقدمة العلامة ابن خلدون"، دار الفكر، بيروت، لبنان دط،2007 .ص 173.

7-عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمة العلامة ابن خلدون، ص174.

8- الهادي التيمومي، مفهوم الإمبريالية، دار محمد علي للنشر، صفاقس، تونس، دط، 2004، ص14.

9- روبيرت إسكاريت، سوسيولوجي العرب، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ط3، 1999، ص58.

10- المرجع نفسه، ص59.

11- منى محمد طلبة، عالمية الأدب من منظور معاصر، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،ع: 2، مجلد 33، أكتوبر-ديسمبر 2001، ص 162.

12- المرجع نفسه، ص164.

13- ابن منظور، لسان العرب، مجلد 15، ص .92

14- الفيروزبادي، القاموس المحيط، ج2، ص 450.

15-محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، السويس، مصر، دط، دس، ص277.

16- ميشيل مان، موسوعة العلوم الاجتماعية، ص.412

17- المصدر نفسه، ص412.

18- ينظر جان وليام لابيار، السلطة السياسية، ترجمة إلياس حنا إلياس، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط1 1974، ص9 .

19- المرجع السابق، ص49.

20- ماكيا فلي،الأميرّ، ترجمة محمد بن البار، دار الأمة، برج الكيفان، الجزائر، ط1998،1، ص88.

21- جان مينو، مدخل إلى علم السياسة، ترجمة جورج يونس، مكتبة الفكر الجامعي، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط1، 1967، ص.279
22- روبيرت إسكاربيت، سوسيولوجيا الأدب ،ص38.
23- جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا، 1619-1830، دار هومه، الجزائر، دار الطبع، دط، 2010 ، ص281
24- منى محمد طلبه، عالمية الأدب من منظور معاصر، ص159.
25- المرجع نفسه، ص.172
26- أبو علي الحسن بن رشيف القيرواني الأزدي، العمدة، ج1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة ، مصر، ط1، 2006، ص 17-18.
27- إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، دط، دس، ص.107
28- محمد الصالح الصديق، العربية لغة العلم والحضارة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2009، ص.144
29- ابن رشيف، العمدة، ص.18
30- حسن البنا عز الدين، الشعرية والثقافة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003، ص.134
31- المرجع نفسه، 143.
32- ينظر المرجع السابق، ص.144
33- شعبان خضير، معجم الكتابة، دار اللسان العربي الجزائري، دط، دس، ص.25
34- المصدر نفسه، ص 98.
35- العلق: 1،2،3،4،5 وهذه الآيات هي أول ما نزل على الرسول (صلى)، فجاءه جبريل عليه السلام و أمر أن يقرأ فامتنع و قال(ما أنا بقارئ) فلم يزل به حتى قرأ فالذي خلق الإنسان وأعتني بتدبيره، لا بد أن يدبره بالأمر والنهي وذلك بإرسال الرسول إليهم وإنزال الكتب عليهم ولهذا ذكر بعد الآمر بالقراءة خلقه للإنسان، ومن كرم الله عز و جل علم بالقلم.
ينظر، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق بن معلا اللويحق، دار بن حزم، بيروت، لبنان ط1،2003، ص889.
36- شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، دار المعارف،القاهرة، مصر، ط1، 1995، ص.115
37- نهاد الموسى، اللغة العربية في العصر الحديث،دار الشروق،عمان، الأردن،ط1، 2007، ص.137
38- محمود كامل الناقه ورشدي أحمد طعيمة، اللغة العربية و التفاهم العالمي، دار المسيرة، عمان، الأردن، ط1، 2009 ص.21

39- شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، مصر، ط2، دس، ص.172.
40- نهاد الموسى، اللغة العربية في العصر الحديث، ص.13.
41- عبد القاهر جرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دط، 2003، ص.9.
42- محمد عبد الله بن محمد بن سعيد ابن سنان الخفاجي،سر الفصاحة ـتحقيق إبراهيم شمس الدين، كتاب ناشرون، بيروت لبنان، ط 1، 2010، ص.124.
43- المصدر نفسه، ص125 .
44- أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الشعر و الشعراء أو طبقات الشعراء، تحقيق مفيد قميحة و محمد أمين الضاري، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، ط2،2005،ص37-.38
45- ينظر محمود كامل الناقة ورشدي أحمد طعيمة، اللغة العربية و التفاهم العالمي، ص.68
46- أحمد بن نعمان، فرنسا و الأطروحة البربرية، دار الأمة، برج الكيفان، الجزائر، ط 2، 1997 ،ص103.

- عهد الرجاريين هو العهد الذي عاش فيه الإدريسي بعد سقوط الأندلس.وقد انتهج رجار وحاشيته منهاج جديد نحو مغامرة أروبية من أهدافها إعلاء سمعته النيرة وسمعة دولته .وقد عرفت فيه العربية ازدهارا بعد الاضطهاد الذي عرفته في العهد الذي سبقه من طرف الاسبان.

48- الإدريسي، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، حققه محمد حاج صدق، مطابع ، بلجيكا، دط، 1983 ،ص.33
49- أحمد بن نعمان، فرنسا و الأطروحة البربرية، ص135.